شعره

[١]

أنشد بعضهم فى مجلس هذا البيت لعدى بن الرقاع:

وكأن ليلى حين تغرب شمسه　　بسواد آخر غيره، موصول

فأنشد غيره هذه الأبيات لبشار:

خليلى ما بال الدجى لا تزحزح　　وما لعمود الصبح لا يتوضح

أضل النهار المستنير طريقه　　أم الدهر ليل كله ليس يبرح

لطال على الليل حتى كأنه　　بليلين موصول، فما يتزحزح

كأن الدجى زادت، وما زادت الدجى　　ولكن أطال الليل هم مبرح

لقد هاج دمعى نازح بنزوحه　　ونومى - إذا ما نوم الناس - أنزح

فقال أحد الحاضرين للأول "نح بيتك، لا تأكله هذه الأبيات! فإن بيتك طفل، وهذه الأبيات سباع".

ولو سمع بشار هذا الوصف لاستخفه الطرب، فقد كان مولعا بأن يقال عنه إنه فحل.

وما بعجيب أن يجيد القول فى طول الليل، فما كان يصف فى الحقيقة إلا الليل قسم له أن يكون عليه سر مدا. ومثله قول ابن التعاويذى بعد أن كف:

يا لـك من لـيك حـــجـــاب جنحـــــه مـــعـــتكر
ظـلامـــــــــه لا يـنـجـلـى وصـــبـحـــه لا يـسـفـــر
لـيـس لـه إلـى المـمـــــات آخـــــــــر يـنـتـظـر
مـــا فى حـــيـــاة مـــعـــه لـذى حـــــصـــــاة وطـر
غـــــادرنـى كـــــأننى فى كـــسـر بـيـتى حـجـر
لا أهـتـــدى لحـــاجـــتى وفـى الـلـيـــالـى عـــبـــر

ولغة بشار متينة، وعبارته جيدة رصينة، ولاسيما إذا مدح أو هجا أو قال فى غرض جدى، وكان فخورا بذلك مدلا به، مزهوا بأنه نشأ فى حجور الفصحاء من الشيوخ، وكان معترفا له بالصحة وسعة العلم بكلام العرب وبالفطنة وجودة القريحة والنقد.

سمع أبو زيد بيته فى هجاء صديقه ديسم العنزى:

أديسم يا بن الذئب من نجل زارع أتروى هجائى سادرا غير مقصر؟

فقال "قاتله الله! ما أعلمه بكلام العرب! الديسم ولد الذئب من الكلبة ويقال للكلاب أولاد زارع".

وقال أبو عبيدة "سمعت بشارا يقول: وقد أنشد فى شعر للأعشى:

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت من الحوادث ألا الشيب والصلعا

"هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الأعشى" قال أبو عبيدة. "فعجبت لذلك. فلما كان بعد هذا بعشر سنين كنت جالسا عند يونس فحدثنى أن أبا عمر بن العلاء قال إنه صنع هذا البيت وأدخله فى شعر الأعشى. فجعلت حينئذ أزداد عجبا من فطنة بشار وجودة نقده للشعر".

وكان الأصعمى يقول "بشار خاتمة الشعراء. والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم" وهى كلمة سخيفة، ولكنها شهادة على كل حال. ولم يكن بشار ينتظر أمثال هذه الشهادة، فقد حكم لنفسه بالاستظهار وكان يقول عن نفسه "لى اثنا عشر الف بيت عين" فقيل له "هذا ما لم يكن يدعيه أحد قط سواك" قال "لى اثنتا عشر ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن فى كل واحدة منها بيت عين".

وقال عنه الجاحظ "كان بشار شاعرا خطيبا صاحب منثور ومزدوج، وسجع ورسائل. وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المفتنين فى الشعر القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه".

وكان الأصعمى يقول لمن يفضلون مروان بن أبى حفصة "كيف يكون ذلك وما كان مروان فى حياة بشار يقول شعرا حتى يصلحه له بشار ويقومه؟ وهذا سلم الخاسر من طبقة مروان يزاحمه بين أيدى الخلفاء بالشعر، ويساويه فى الجوائز، وسلم معترف بأنه تبع لبشار".

ولكن إسحاق الموصلى كان يطعن على شعر بشار ويضع منه ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضا، وكان فوق ذلك يسرقه ويغزو بعض شعره الجيد للمتلمس. وهو من التحامل، ولعله كان يستثقله فهو لهذا يذمه. على أن قوله فى اختلاف شعر بشار وتفاوته صحيح لا يدفع.

وبلغ من توفيق بشار فى حياته أن قال بعضهم "عهدى بالبصرة وليس فيها غزل ولا غزلة إلا يروى من شعر بشار، ولا نائحة ولا مغنية ألا تتكسب به، ولا ذو شرف ألا وهو يهابه ويخاف معرة لسانه".

غير أن خطبه كلها ذهبت مع الريح، ولم يبق من منثوره ومزدوجه

وسجعه ورسائله، لا كثير ولا قليل، وطوى ديوانه، فلا يوجد منه سوى فارسيا لغته عربية، ومسلما لم يستول الإسلام على نفسه، ولم يمنع ما للديانة الموروثة من التأثير، وكان ثائرا متمردا بطبيعته وبحكم جنسيته على الرغم من تحرزه وجبنه، وكان يشتم الخلفاء والوزراء والكبراء والعلماء والأصدقاء والأعداء فى الدولتين جميعا، ويحرض الموالى مثله على الانتفاء ويحضهم على الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء. وما كان ينافق ويصانع إلا رغبة ورهبة رغبة فى الحظوة والغنى والمتعة فى الحياة، واتقاء لبطش القادرين على البطش. وكان يظهر الاذعان لدولة العرب، ولكنه يتمثل انتصار العنصر الفارسى على العنصر العربى فى السياسة والاجتماع والأدب. وقد أسرف فى الهجاء المقذع، أو قل السب الصريح. فما كان هذا هجاء وإنما كان قذفا. وكان أول ما قال من الشعر فى حياته هجاء. وأكبر الظن أن آخر ما جرى به لسانه كان هجاء أيضا فقد قتل فيه. وأسرف فى المجون والخلاعة على الرغم مما كان يتوخاه من الحيطة والتحرز. وأكثر من شعر الغزل الذى استهتر به الشبان والنساء. فشمت به الناس جميعا لما مات. فمن ذا الذى يصون شعره ونثره من الضياع؟ والهجاء والغزل فى شعر من سبقه من الشعراء كثير. والاقذاع غير قليل. ولسنا نعدم شعرا قديما فيه اسفاف، ولكن بشارا جاوز الحدود السابقة وخرج إلى ما لم يخرج إليه السلف. ولست تجد شاعرا واحدا تقدمه وفى كلامه مثل هذه "الجملة" من الهجاء الشخصى القبيح، والقذف الصريح والغزل المسف. وكان الشعراء قبله إذا هجوا يتعلقون على الأكثر، وفى الأغلب، بالمعانى "الاجتماعية" فيعيبون المهجو بما يعد نقصا فى هذا الباب، كالبخل والجبن وقلة المروءة وسقوط الهمة والذلة وهوان القدر وما إلى ذلك مما يجرى هذا المجرى. وكان الذم الشخصى أو الطعن فى العرض قليلا

إذا قيس إلى ما قال بشار بمفرده. أما بشار فقد أفحش في وقوعه في الأعراض كما بالغ في تناول المحسوس في تشبيه فهو يعد مسئولا إلى حد كبير عن شيوع ذلك بعده.

والواقع أنه يلاحظ أن الشعراء من العرب اتقوا هذا على العموم، إلا قليلا، يستوى فى ذلك السابقون واللاحقون من المطبوعين لا المقلدين فإن هؤلاء آفة. أما الشعراء الذين هم من أصل أجنبى فهؤلاء ركبوا متن الشطط وأساءوا إلى الخلف الكريم والأدب، بقدر ما أجادوا فى الشعر وبرعوا فيه. فبشار، وبعده أبو نواس، وأمه فارسية من هوازن، وبعدهما ابن الرومى، لا تجد مثل إفحاشهم فى شعر أبى تمام والبحترى والشريف الرضى والمتنبى وأبى العلاء المعرى. ولكل قاعدة شذوذ أو استثناء. فمهيار كان عفا وعسى أن تكون عفته مكتسبة، فقد كان تلميذ الشريف، وكان حديث عهد بالإسلام، ولكن هذا لا يمنع أن غير العرب هم الذين أفشوا فى الأدب واتساع دولتهم واختلاطهم بغيرهم من الأمم. وما من ريب فى أن ما حدث من الأمم المغلوبة قد ساعد على جعل المجون والفحش والعبث مقبولا أو هيأ النفوس لقبوله، ولاسيما فيما جاور فارس التى انتقلت منها هذه الإباحية فى الرأى إلى العراق ومن ثم إلى الأقطار الأخرى.

ونعود إلى بشار فنقول أن القليل الباقى - أو المعروف إلى الآن - من شعره، يشهد له بأنه حقيق بما تبوأ من مقام فى عالم الأدب بين أعلام البيان، وإن كان لا يكفى للقول بأنه زعيم الشعراء المحدثين، فإن هذه دعوى عريضة لا تقبل بغير دليل، ولا دليل عليها، وأكثر شعره مطوى.

[٢]

أكثر شعر بشار - أو مـا بقى لنا منه - غزل وهجاء. وقد مر بك القول فى غزله، أما هجاؤه فإنه على كثرته، لا يعدو أن يكون شتما لا قيمة له ولا مزية. وهو باب من القول لا يرتقى فيه إلا الذى هـيأته له فطرته وأعانته عليه سليقـته، ولم يكن بشار، على تبـرمه بالناس وضجـره منهم، بالرجل القوى العاطفـة أو العميقـها، ولم يكن له أكثـر من ملكة التشبيـه، تشبيه الأشـياء المحسوسة بعضها ببعض، وكان ضـخم الجسم وافر الحيوية، منغمسًا فى اللهو والملذات، لا يفتـر عنها، ولا يزهد فـيهـا، ولا يعيا بهـا حتى بعـد أن شيخ وهرم. وقد أسلفنا أننا لم نقرأ فى خبر ما، أنه مرض فى حياته مرضًا ذا بال، ونقرأ شعره فلـولا من قيل فيهم - مدحًا أو هجاء - لما عـرفت أهو من شعر الصبا أم من شعر الكهولة، فـإن النفس واحد، والروح لا يتفاوت أو يختلف فيـما عدا مـا كان يتلهى به من الهـزل والعبث. ولقد ضـرب بالسيـاط حتى مات، وكان قد جاوز السبعين - أو التـسعين على قول ليلهو بالأذان فى غير أوقاته. ولم يزل أحب متاع الدنيا إليه - كما قال - "طعام مز، وشراب مر، وبنت عشرين بكر" فهـو مشغول أبدا بمطالب الجسد وشهـوات البدن، وبعيد جدا أن يكون ذو الطبيـعة الحيوانية ممن تستـغرقهم العاطفة أو تسـتولى عليهم فكرة، ولهذا لم يرتق فى شـعره قط إلى عليه مراتب الفن، حـتى حكمته لم تكن إلا ثمرة التجربة للحياة ومواقعتها انظر قوله فى المشورة:

إذا بلغ الرأى المشـورة فـاسـتـعن ... برأى نصـيح أو نـصـيـحـة حـازم

ولا تجعل الشورى عليك غـضاضة ... فـإن الخـوافى قـوة للقـوادم

وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم

فإنها حكمة واقعية، ومذهب رجل ينشد السلامة والاطمئنان والعيش الرغيد فى أمن ودعة. وقد قال له الأصعمى "يا أبا معاذ، إن الناس يعجبون من أبياتك فى المشورة". فقال له "يا أبا سعيد، إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته، أو خطأ يشارك فى مكروهة" فقال الأصعمى "أنت والله فى قولك هذا أشعر منك فى شعرك".

وليس الأمر كما ذكر الأصعمى، وإنما نصح بشار بما هو أكفل بالسلامة وأجلب للخير والأمن.

وقوله:

تأتى المقيم - وما سعى - حاجاته عدد الحصى. ويخيب سعى الطالب

فما عدا أن قال إن كل شىء قسمة وحظوظ وأرزاق.

وقوله:

احلب لبونك إبساسا وتمرية لا يقطع الدر إلا شر حتلب

والابساس صوت يخرجه الحالب عند حلب الناقة ليسكنها به. يريد خذ الأمور برفق، وهى حكمة عملية، لم يكن هو يتحراها لسوء حظه.

وقوله:

عتاب الفتى فى كل يوم بلية وتقويم أضغان النساء عناء

وتلك ولاشك ثمرة تجربته الخاصة وما عاناه من النساء اللواتى كان يتهالك فى طلب الاستمتاع بهن.

وقوله:

ترجو غدا، وغد كحاملة　　فى الحى لا يدرون ما تلد

ومعناه لا علم لأحد بالغيب، فاسكن إلى ما أنت فيه. والقول بأن المرء لا يستطيع أن يعلم ما يكون فى غد مما أجمع عليه الأول والآخر.

ومعظم معانيه وسط، أو لا جديد فيه كقوله:

خليلى يفنى الموت كل قبيلة　　وما أنا إلا فى سبيل القبائل

فروحا على مالى، كلا من فضوله　　فما تجمع الأموال إلا لآكل

إذا أنا لم أنفع بجاهى، ولم أجد　　بمالى، طالتنى يد المتطاول

وقوله:

ولابد من شكوى إلى ذى حفيظة　　إذا جعلت أسرار نفسى تطلع

وقوله:

أنا أن زلت عن مقامى لأمر　　رابنى تحت أخمصى ما يضر

كمزيل رجليه عن بلل القطر　　وما حوله من الأرض بحر

برقت لى، حتى إذا قلت جادت　　أقلعت عن جهامة تستمر

تركتنى، وما أؤمل منها　　كالمرجى سحابة لا تدر

أيها البارق الذى ليس يجدى　　قد عرفناك فالتمس من تغر

وقوله:

خليلى أن العسر سوف يفيق　　وإن يسارا فى غد الخليق

ذرانى أشب همى براح فاننى ... أرى الدهر فيه فرجة ومضيق

وما أنا إلا كالزمان إذا صحا ... صحوت، وإن ماق الزمان أموق

وقوله:

الحر يلحى، والعصا للعبد ... وليس للملحف مثل الرد

وقوله:

عى الشريف يشين منصبه ... وترى الوضيع يزينه أدبه

والصدق أفضل ما حضرت به ... ولربما ضر الفتى كذبه

خذ من صديقك غير متعبه ... أن الحدود الجواد يؤوده تعبه

يرد الحريص على متالفه ... والليث يبعث حتفه كلبه

وقوله:

إن الطبيب بطبه ودوائه ... لا يستطيع دفاع مقدور أتى

ما للطيب يموت بالداء الذى ... قد كان يبرى مثله فيما مضى

إلا لأن الخلق يحكم فيهم ... من لا يرد ولا يجاوز ما قضى

وقوله:

إذا المرء لم يفضل، وقام بكله ... فليس به بأس، وليس بكامل

وإن كان ذا فضل، وقام بكله ... فسام به أهل العلا والفضائل

وإن كان لا فضل، ولم يغن كله ... فناد به فى الناس هل من منازل

وقوله:

ليس كل النعيم يبقى سرورا ... رب هم يدب تحت السرور

وقوله:

وإذا أقل لى البخيل عذرته ... إن القليل من البخيل كثير

وقوله:

دعينى أصب من متعة قبل رقدة ... تكاد لها نفس الشفيق تزول

وإنى لآتى الأمر أعرف غبه ... مرارا، وحلمى فى الرجال أصيل

ولما رأيت الدار وحشا بها المها ... تزود، وخيطان النعام تجول

ذكرت بها عيشا وقلت لصاحبى ... كأن لم يكن ما كان، حين يزول

بدا لى أن الدهر يقدح فى الصفا ... وإن بقائى، حين شبت، قليل

أقول لقلبى وهو يرنو إلى الصبا ... علام التصابى والحوادث غول

لعلك ترجو أن تعيش مخلدا ... أبى ذاك شبان لنا وكهول

فلم تكن مزية بشار سمو المعنى، وقوة الخيال، أو صدق العاطفة، أو إخلاص السريرة، أو نفاذ البصيرة، وإنما كانت قدرته على الأداء الجيد الموافق للمعنى الذى يعالجه والغرض الذى يقول فيه، وقد مر بك من شعره ما فيه الكفاية.

وإذا كان لم يجئ فى الهجا بشىء من البراعات، فلا عجب، فما كان الهجاء عنده إلا زجرا وتخويفًا وإنذارا، يصد به من يهمون به أو يتحفزون للوثوب عليه، وينهر من يخوضون فيه، ويهدد السراة الذين يرجى نوالهم ليجودوا عليه ويعطوه مما أعطاهم الله. وأكثرهم فحش لا نرى أن نورد منه

شيئا، لإسرافه فى البذاءة التى تشبه بذاءة العامة والسوقة والسفلة، ولأنه ليس فيه معنى نفيس، أو صورة بارعة، ولم يكن باعثه على الهجاء أنه يطوى. أضالعه على حقد كامن يتلهب فى صدره، أو أنه كان يرى من سيرة المهجوين ما يستحق الزراية والتشهير، أو ما يدعو إلى التقويم، وإنما كان رجلا أحب أن يكون له مال وشأن ومقام، ولم يكن له من الأدوات غير الشعر وما إليه من ضروب الكلام، فقال أمدح فإذا أعطيت الجزيل مضيت فى أفراغ المدائح على من يهب ما فيه لى مرضاة، وإذا أقلوا، هددتهم وتوعدتهم وخوفتهم، حتى تبلنى منهم سحابة الحدود كما قال خالد بن برمك. وإذا ردوه خائبا لم يبق إلا الشتم والولوغ فى أعراضهم بأقبح لفظ وأشنع عبارة، فإذا لم يجد معهم ذاك كان خليقا أن يروغ غيرهم ويذعرهم. وأما غيرهم من الفقهاء والعلماء والناس جميعًا، فالهجاء يفزعهم، فيتملقه منهم الضعيف ويتقيه المسالم وقد استقر عزمه على هذا النهج وهو صبى، ولم يزل على هذه الخطة إلى آخر حياته، وكانت هى التى أوردته موارد التلف، وشجعه على ذلك روح العص فقد نشأ وجرير والفرزدق يتهاجيان والناس تلغط بما يقولان. وكان علو اللسان وقوة البيان من أسباب الظهور والشهرة. ومن قول بشار: "هجوت جريراً فأعرض عنى واستصغرنى ولو أجابنى لكنت أشعر الناس". وكان الهجاء فى ذلك العصر بابًا واسعًا إلى الغنى. وكانت به هو حاجة إلى تخويف الناس اتقاء لشرهم، أو عبثهم، لأنه أعمى دميم الخلق، منظره وحاله يغريان بركوبه بالعبث، ثم لأنه كان مستخفًا مستهتراً ومتحيراً كما قالوا عنه، فهو يخشى إذا لغط الناس بخلاعته ورقة دينه أن يصيبه من ذلك مكروه. ثم إنه هو لم يكن يعرف للعرض كرامة أو حرمة، فكان يجترئ عليهم بأفحش الهجو، ويضحك كأنما كان ذاك أمراً مألوفًا عيب فيه ولا موجب للغضب

منه، بل أحربه أن يدخل على نفس المشتوم مثل ما دخل على نفسه هو من السرور والتسلية، ولم تكن سلاطته مظهر قوة، بل آية ضعف وعجز. فقد كان يخاف فيخوف، ويعتقد أن الناس مثله يخافون أن تطير لهم سمعة سيئة، فهو يهجوهم ليذلهم. ومن مظاهرهم خوفه مهاجاته لحماد عجرد. فقد كانت وقعته معه سوداء، ولم يكن حماد دونه خرعة ومجونًا واستخفافًا بالآداب والفضائل والحرمات والدين، وكان بشار يجزع من أهاجى حماد وما يرميه به فيها. ولا يزال فيما يجيبه به يتهمه بالزندقة والإلحاد ليدفع عن نفسه الشبهة خوفًا من عواقبها، وليلصقها فبقى حماد سليما معافى، وقتل بشار.

هذا، وأما ما نسب إلى بشار من المجون الكثير فأنا أميل إلى الشك فيه. فقد كان الرجل بغيضا إلى الناس كلهم. فليس مما يستغرب أن يدرس عليه ما لم يقل. وكان بشار على خلاعته واستهتاكه لا يخلو من تحرز واحتياط. فليس يبدو لى مما يقبل أن يجترئ هذا الاجتراء على ما يعزى إليه من الإفحاش فى المجون. وإذا قيل إن نفس الشاعر هو المقياس، فما شابه كلامه كان حريا أن يكون له، قلنا إن هذا مقياس غير دقيق، لأن القائل فى المجون لا يتحرى ما يتحراه عادة فيما ينظم فى الأغراض الجدية من إشراق الديباجية ورصانة العبارة ومتانة الحبك والسبك وجزالة اللفظ وإحكام الأداء على العموم.

***

[٣]

وقد أخذ بشـار من غيره، وأخذ منـه غيره، فأحسن الأخـذ وأحسنوا. ولعل الأشبه بالصواب أن نقول إن معانيه - ومعظمها وسط - كثيرة فى كلام من سبقوه ومن جاءوا بعده، وهى ليست من البراعة أو العمق بحيث لا يعقل أن تخطر على البال. وإذا ذكـرت أن كل شاعر كل يحـفظ كلام من سبـقوه ويحرص على الإحاطة به فـإنك خليق أن لا تستغرب هذا التشـابه الكثير بين معانى المتقدمين والمتأخرين.

وإلى القارئ طائفة من الأمثلة:

قال بشار:

كأن مثار النفع فوق رؤوسنا واسيا فناليل تهاوى كواكبه

وهو من براعاته المشهورة، وقد جاراه مسلم فقال:

فى جحفل تشرق الأرض الفضاء به كالليل، أنجمه القضبان والأسل

وقال ابن المعتز:

وعم السماء النفع حتى كأنه دخان، وأطراف الرماح شرار

وللمتنبى فى مثل هذا المعنى:

يزور الأعادى فى سماء عجاجة أسنتها فى جانبها الكواكب

وكرره فقال:

فكأنما كسى النهار بها، دجى ليل، وأطلعت الرماح كواكبا

وبيت بشار أصنع:

يروعه السرار بكل أرض مخافة أن يكون به السرار

وقد سبقه عبيد بن أيوب العنبرى فقال:

لقد خفت حتى كل نجوى رأيتها أرى أننى من أمرها بسبيل

وجرير فقال:

تركوك تحسب كل شىء بعدهم خيلا تكر عليكم ورجالا

وأخذه أبو نواس فقال:

ما أرى خاليين فى الناس إلا قلت ما يخلوان إلا لشانى

وقال بشار:

وطال على الليل حتى كأنه بليلين موصول فما يتزحزح

وقد سبقه عدى ابن الرقاع فقال:

فكأن ليلى حين تغرب شمسه بسواد آخر مثله موصول

وقال بشار:

لم يطل ليلى ولكن لم أنم

وللفرزدق قبله:

يقولون طال الليل، والليل لم يطل ولكن من يبكى من الشوق يسهر

وقال بشار:

ما كل بارقة تجرد بماثها وكذلك لو صدق الربيع لروضا

ويقول البحترى:

ما كل شائم باريق يسقاه

وللخريمى:

ولرب بارقة سهرت لها وسقى بلاد سواك وابلها

وقال بشار:

إذا خزن المال البخيل فإنما خزائنه خطية ودروع

ولليلى بنت طريف ترثى أخاها - وهى أسبق -

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

وقال بشار:

وبيض بها مسك مكان بنانه ولكنها ريح الدماء تضوع

وقد سبقه إليه القائل:

لو عبق الناس مسكا من أعنتهم ومن ذوائب سيلاناتهم، عبقوا

وتناول ابن المعتز وأبو تمام هذا المعنى فقال الأول:

ملوك إذا خاضوا الوغى فسيوفهم مقابضها مسك، وسائرها دم

وقال الثانى:

لدم العدو على نضال سيوفهم سهك، وريح المسك فوق مقابض

وقال بشار:

شربنا من فؤاد الدن حتى تركنا الدن ليس له فؤاد

أخذه النظام - ويعزى إلى أبى نواس - فقال:

ما زلت آخذ روح الزق فى لطف وأستبيح دما من غير مجروح
حتى انثنيت ولى روحان فى جسد والزق مطرحا، جسم بلا روح

وقال ابن المعتز:

والزق فى روضة، تسيل دما أوداجه، جاثيا على الركب

ويقول بشار:

تجرى على أحسابهم والعود ينبت فى لحائه

ولزهير قبله:

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل؟

ولنهشل بن حرى:

أرى كل عود نابتا فى أرومة أبى نسب الفتيان أن يتغيرا

ويقول بشار:

تأتى المقيم - وما سعى - حاجاته عدد الحصى، ويخيب سعى الطالب

ومثله للبحترى:

وعجبت للمحدود يحرم ناصبا كلفا، وللمجدود يرزق قاعدا

ولابن المعتز:

كم راقد موقظ برزق وذى اجتهاد ولا ينال

ولبشار:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أخذه سلم الخاسر فقال:

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

وابن المعتز فقال:

صاح أن أمكنتك لذة عيش فلا تذر وتقدم ولا تخف فاز بالحب من جسر

وأبو العتاهية فقال:

فاجسر فإن أخا اللذات من جسرا

ويقول بشار:

فضحت جودها بطول مطال حالفته، وآفة الجود مطل

وقال ابن المعتز:

والحرص ذل، والبخل فقر وآفة النائل المطال

ومثله قول آخر:

والمطل، من غير عسر، آفة الجود

وقال بشار:

فتى لا ينام على دمنة ولا يشرب الماء إلا بدم

يشبه قول العاوى البصرى:

إذا شرب الناس ماء الكروم شربنا على الصافنات الدماء

وقول أبى سعد المخزومى:

لا يشرب الماء إلا من قليب دم ولا يبيت له جار على وجل

ويقول المتنبى:

ولا ترد الغدران إلا وماؤها من الدم كالريحان تحت الشقائق

وقال بشار:

إذا قال تم على قوله ومات العناء بلا أو نعم

يلم به قول ابن المعتز:

تمت على سفك دمى وحدثت عن خبرى

وقال بشار:

تزل القوافى عن لسانى كأنها حمات الأفاعى ريقهن قضاء

وفى كتاب الحيوان "ريقهن مقضب"

ويقرب منه قول جرير:

وعاو عوى من غير شىء، رميته بقافية أنفاذها تقطر الدما

خروج بأفواه الرواة كأنها قرى هندوانى إذا هز صمما

وقال بشار:

ترجو غدا، وغد كحاملة فى الحى لا يدرون ما تلد

ولزهير:

وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم

وقال بشار:

وتوق الطيب ليلتنا أنه واش إذا سطعا

وأصله قول ابن الدمينه:

هجـــان اللـون أبـكار وعـــون عليـهـن المجـاســد والحــرير

إذا طردت مـتــون الـريح فـيــه توشي المسك يأرج والعــبـيــر

ومثله قول العجير:

إذا ما مشت نادى بما فى ثيابها ذكى الشذا والمندلى المطير

وقال بشار:

غيران وقر سمعه وضميره وقع الحديد به يشق حديدا

وهو من قول عروة بن أذينة:

عرته الحادثات فنجزته ووقر سمعه وقع الحديد

وقال بشار:

ولقــد أقــول لقــافلين رأيتــهم دون المشلشل ينشـدون قـصـيـدا

كـيف الأميـر لزائر متــخـيـر ترك الأقـارب والـصـديق بعـيـدا

فـتـبــادروا طرف الثـناء لفــضله فـكأنمـا نشـــــروا الثـناء بـرودا

وهى من قول نصيب فى سليمان بن عبد الملك:

أقــول لركب قـافـلين لقـيـتـهم قـفـاذات أوشـال ومـولاك قـارب

قـفـوا خبـرونى عن سليـمـان اننى لمعـــروفـــة من آل ودان طـالب

فـعـاجـوا فـأثنوا بـالذى أنت أهله ولو سكـتــوا عليك الحــقــائب

وقال بشار:

فسقيتهم، وحسبتنى كمونة نبتت لزارعها بغير شراب

وهو من قول القائل:

لا تجعلنى ككمون بمزرعة إن فاته الماء أغنته المواعيد

وزاد عليه ابن الرومى فقال:

جعلته بالهجاء فلفة إذ جعلتنى مناه كمونا

وقال بشار:

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشار به

أصله قول النابغة:

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث، أى الرجال المهذب

وقال بشار:

ولابد من شكوى إلى ذى حفيظة إذا جعلت أسرار نفسى تطلع

يريد بذى الحفيظة الولى المحافظ على ود وليه

وفى رسالة الغفران:

لابد للمصدر أن ينفثا وللذى فى الصدر أن يبعثا

ولأبى تمام:

شكوت وما الشكوى لمثلى عادة ولكن تفيض العين عند امتلائها

وقال بشار:

قتلت السر كتمانا وقتل السر أبقى له

من قول حارثة بنت عمران النهدى:

وإنى لأطوى السر حتى أميته وأجعل قلبى دونه أبدا قبرا

وقال كثير:

كريم يميت السر حتى كأنه إذا استخبروه عن حديثك، جاهل

وأخذه المتنبى فقال:

"وسركم فى الحشى ميت"

وقال بشار:

دعينى أصب من متعة قبل رقدة تكاد بها نفس الشفيق تزول

ويقول المتنبى:

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام

فان بثالث الحالين معنى سوى معنى انتهابك والمنام

أى تمتع فى دنياك فى الحالين ولا ترج أنك إذا مت تكون كالنائم فانك تكون ميتا لا نائما ولا منتهبا وهو ثالث الحالين.

وقال بشار:

ذكرت بها عيشا وقلت لصاحبى كأن لم يكن ما كان، حين يزول

وللمتنبى قوله:

ذكرت به وصلا كأن لم أفز به وعيشا كأنى كنت أقطعه وثبا

وقال بشار:

فبتنا معا لا يخلص الماء بيننا إلى الصبح دونى حاجب وستور

ومنه قول على بن الجهم:

سقى الله ليلا ضمنا بعد هجعة وأدنى فؤادا من فؤاد معذب

فبتنا جميعا، لو تراق زجاجة من الراح فيما بيننا لم تسرب

وتصرف فيه ابن الرومى فقال:

طالما التفت إلى الصبـ ـح لنا ساق بساق

فى نقاب من لثام وازار من عناق

وقال ابن المعتز:

فلو ترانا فى قميص الدجى حسبتنا فى جسد واحد

وقال بشار:

لا تلم فيها وحسن حبها كل ما قرت به العين حسن

من قول توبة:

وأغبط من ليلى بما لا أناله بلى، كل ما قرت به العين صالح

وللأحوص:

يقر بعينى ما يقر بعينها وأحسن شىء ما به العين قرت

وحسبنا هذا القدر، وعسى أن نكون انصفنا أبا معاذ.

خاتمة

وبعد فهـذا بشار، وتلك سيرته، وذاك مـا وقفنا عليه من شـعره، وقد حرصنا جهـدنا أن لا نستر شيـئا من عيوبه أو نتـرفق به، وإن كنا نحس كأننا ننبش قبـرا ونمزق كفنا. وكل مـا نرجو هو أن لا نكون قد بالغنـا فى التجنى عليه أو أسرفنا فـى ظلمه. ولهذا لا يسعنا إلا أن نقول أنـا نمهد له العذر من زمانه ومكانه وما لا حيلة له فيه مما رزق أو حرم.

كان مـا أدركه من العـهد الأمـوى مضطربا لا اسـتقـرار فيـه، وكانت العصبية القبلية فاشيـة، والحروب الخارجية والفتن الداخلية لا تنقطع، وقبائل التركمان والخـزر يشتد ساعدها ويتفاقم أمـرها فى الشمال، والخوارج تتلهب قلوبهم سـخطا وحنقا، حـتى جاهروا بالثـورة آخر الأمـر واكتـسحوا الـيمن والحجاز والعـراق زمنا، ودعاة العباسـيين يقوضون دعـائم الدولة، والفوضى عامة، والارتباك على أشده، وأهل التقوى والعلم ينفضون أيديهم من الشئون العامـة فيـتولاها ذوو وطلاب المنافع، حـتى خرج أبو مسلم فـكان الانقلاب العباسى.

ولكن قيام دولة بنى العباس لم يجئ بالاستـقرار السريع، فخرج أعوان الأمـويين على السـفاح فى دمـشق وحـمص وقنسـرين وفلسطين والعـراق، وواصل يزيد بن هبـيرة فى "واسط" المـقاومـة حتى يئس، وغـزت جيـوش بيزنطة الحدود الشمالية وتوغلت فى البلاد وأمعنت فـيها تخريبا وسلبا وقتلا، ولم تكن خلافه المنصور أهدأ. فقد شق عمه "عبد الله بن على" عامل الشام عصـا الطاعة، ونادى بالبيـعة لنفسه، وأثار قـتل أبى مسلم سخط أتبـاعه فى

خراسان فتمردوا، وأضرم الراوندية نار الثورة، وكانوا يعتقدون بحاول الله فى الخليفة، وكادوا يقتلون الخليفة نفسه، وثار كذلك أهل طبرستان. واجتاح أهل الديلم الحدود، وفى خلافة المنصور قام محمد وابراهيم ابنا الحسن بثورتهما فى المدينة والبصرة، ونجح محمد فى الحجاز واليمن نجاحا سريعا، وبايعه أهل هذه الأمصار، وأفتى الإمام أبو حنيفة الإمام مالك بصحة ذلك، وانقسم الشيعة بعد موت الامام جعفر الصادق، وكان قد أوصى لابنه الأكبر اسماعيل الذى توفى فى حياة أبيه، فعاد فأوصى لابنه الثانى موسى الملقب بالكاظم، غير أن بعض الشيعة رفضوا الاعتراف به وقالوا بإمامه "حبيب بن اسماعيل" فكان هذا بدء ظهور الطائفة الاسماعيلية التى أسست الدولة الفاطمية فى مصر.

وفى أيام المهدى ثار هاشم بن حكيم الملقب بالنبى المقنع. وكانت خراسان مرتعا خصيبا لشتى الطوائف والمذاهب. وكان هاشم هذا دعيًا دميما كريه المنظر فكان يتقنع ليستر قبحه فسمى المقنع. وكان يزعم أن روح الله تحل بين حين وحين فى واحد يصطفيه من عباده، وإنها حلت فيه كما حلت من قبل فى أبى مسلم الخراسانى، ويقول إن الدين هو الإيمان ليس إلا ويدعو إلى التحرر من قيود الأخلاق والآداب والفضائل فاستولى على قلوب الناس وعظم شأنه، فبعث إليه المهدى بجيش هزمه وقتله، وكان أصحابه يسمون "المبيضة" لأنهم يلبسون البياض.

وكانت فى جورجان شرقى بحر قزوين فرقة أخرى تسمى المحمرة لأنها كانت تلبس ثيابا حمرا. وكانت مبادئها أباحية مسرفة. وفى حكم المهدى امتزجت المبادئ الأباحية بعض الامتزاج بالفلسفة المانوية التى كانت ظهرت فى

فارس فى القرن الرابع الميلادى ولم تقمع ولم تقتلع جذورها. وقد انتشر هذا الخليط الاباحى المانوى فى خراسان وغربى ايران والعراق. وقد نكل المهدى بأهلها ولكنه لم يقض عليها. وفى عهده أيضا أغار البيزنطيون على الدولة، وثار عرب البادية ونهبوا القوافل وعطلوا الصلاة وأساءوا إلى الحجاج فسير إليهم جيشا قمع حركتهم.

هذه صورة موجزة للعهد الذى نشأ وعاش ومات فيه بشار - فله عذر من زمانه، ومن مكانه، ولم يكن من المعقول أن تمر به هذه الحوادث السياسية والدينية، وأن تحدث الانقسامات، وتظهر المذاهب الإباحية والاشتراكية، وتفشو مبادئ الالحاد، دون أن يكون لها أثر فى نفسه محسوس. ولو كان الوحيد الذى نرى فيه صورة من زمانه لما عذرناه. ولكن الشعراء الذين عاصروه لم يكونوا خير منه، بل لم يكن بعض الخلفاء وأبنائهم وذوى قرابتهم أهدى وأرشد من بشار، أو أقل خلاعة ومجونا وشكا وزندقة. ولا تنس أنه - إلى هذا - ولد أعمى، وكان من الموالى، وكانوا ساخطين ناقمين، وأنه ولد على الرق، وكان فوق هذا دميما مجدورا فظيع العمى، وهذه كلها خليقة أن تثير فى النفس مرارة قليلة أو كثيرة. وقد كره بعضهم منه تحريض الموالى على الانتفاء، ونحسب أن حجته فيما كان يصنع أنهض من حجتهم فيما كانوا ينقمون. فما عدا أن كان يدعو إلى الحق العام الذى لكل إنسان، وإلى رفع الظلم وتقرير المساواة - وقد جاء بها الإسلام.

وقالوا إن بشارا كان خليقا به أن يتحمل الآفة التى منى بها بالصبر والتجمل. ولاشك أن الصبر كان حريا أن يكون أجلب للعطف. ولكن من الذى قال أن عطف الناس مطلب كل إنسان؟ ومن الذى يزعم أنه يخف على

النفس الأبية والطبع الحمى؟ أن نشدان العطف مظهر ضعف أو مكر فى الانسان. ولم يخلق بشار ضعيفا بل بنى على القوة والتمرد، ولا حيلة له فى هذا. وليس مما يقبل أن يقال للقوى الشديد، أولى بك أن تظهر الركاكة والفسولة، وأن تعقد سطيحا، وتقوم مرنحا، وتكون فى كل أحولك وكلة لا متصرف لك ولا حيلة عندك، لتظفر بالعطف عليك والمرثية لك؟ وما ينزع المرء إلى التمرد باختياره، بل لأن ذلك طباع فيه وفى نفسه تهيؤ له. على أنه إذا جاز أن يطالب بشار بالتجمل والتصبر، وتلقى ما رماه به سوء خطه، بالرضى والتسليم، فلماذا لا يجوز أن يطالب الناس بالأدب، واجتناب إيذاء المصاب بتعييره بخطبه؟ لقد كان الناس لا يفتأون يقولون لبشار إنك أعمى فكيف تجيد التشبيه؟ وأنت أعمى فكيف تحب؟ وأنت أعمى فكيف عرفت كذا وكذا؟ وأنت كانك جاموس فكيف تقول إن جسمك ناحل؟ وكان النساء يعيرنه أيضا بعماه، ويغتنمن فرصته فيدعين لأنفسهن من الجمال ما لعل نصيبهن منه أقل من القليل، ويهزأن، ومنهن من قالت له "أى معنى فيك لى، أو فى لك؟ أنت أعمى لا ترانى فتعرف حسنى، وأنت قبيح الوجه فلاحظ لى فيك" حتى الشيب الذى يدرك كل حى مع فسحة العمر كن يعبنه به! وقد قالت له إحداهن "أى رجل أنت لو كنت أسود اللحية والرأس!!" قال بشار "أما علمت أن بيض البزاة أثمن من سود الغرباء؟" فقالت "أما قولك فحسن فى السمع. ومن لى بأن يحسن شيبك فى العين" ولعلها كانت شرا منه بياض شعر.

وكان جلساؤه يثقلون عليه ويعاثبونه، اعتمادا على عماه، حتى مل ذلك فقال لبعضهم:

هل لك فى مالى وعرضى معا وكل ما يملك جيرانيه؟
واذهب إلى أبعد ما ينتوى لا ردك الله ولا ماليه!

فإذا كان عليه هو أن يروض نفسه على أن يكون صابرا مطمئنا، فقد كان على الناس أن يعينوه على ذلك ويكفوا عنه فضولهم وما يركبونه به من عبث وما يجرحونه به من تعبير. وليس من الأنصاف أن يلام وحده، فقد كانت سيرتهم معه بعض ما أغراه بالشطط ودفعه إلى الإسراف وزين له أن يمضى على وجهه.

عصر مضطرب، وزندقة فاشية، وخلاعة شائعة، وبواعث كافية للتمرد، من ذات نفسه ومن بيئته - فكيف كان من الممكن أن يكون بشار ألا كما نحن نحاول أن نبين له عذره، وأنه كان خليقا أن يتغير ويتهذب، لو واتاه زمانه وبيئته، أو لو شاءت قدرة الله غير هذا المخرج. ثم إنه ينبغى أن لا ننسى أن لعل فى أخباره مبالغة، فقد كانت الموجدة عليه شديدة، لطول لسانه، واسفافه، ولما فى غزله من الاغراء بالخلاعة، ولكره الفقهاء وأصحاب الكلام له، ولغضب الخليفة عليه لما هجاه وسعى به إليه وزيره القوى، ولنذكر أن أهل البصرة كانوا مشهورين بالنفاق، وتقلب الأهواء، حتى روى الرواة أنهم ابتهجوا لموتة وتباشروا وشمتوا، وكانوا قبيل ذلك يعدون له الهدايا ليقدموها إليه!

ولنذكر أخيراً أن بشار الشاعر هو الذمى يعنينا، أما سيرته فهى على سوئها وقبحها لم تكن شرا من سيرة معاصريه، ومن تلاهم من الشعراء وغيرهم وإنما تبدو أسوأ كان أشهر، وعلى الله لا علينا حسابه.